الدَّعْـــوَةُ العَبَّـــاسِيَّةُ

دراسة في الهوية من خلال المصادر الجديدة والآراء المتضاربة

د. نبيه عاقل

جامعة دمشق

احتدم نقاش طويل ، بين الباحثين المحدثين ، ومن خلال دراسات علمية جادة ، كان بينها رسائل قدمت لنيل درجة الدكتوراه من جامعات كبرى(١) حول موضوع هوية الثورة العباسية ، التي ادت الى سقوط خلافة بني امية ، وقيام خلافة بني العباس . وكان ما قاله (دانييل دينيت) في رسالته عن (مروان بن محمد) من ان: نقطة الجدل في اطروحته هي ان سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان ، بل نتيجة ثورة في سورية(٢) ، المؤشر الاول الى موقف مخالف للمواقف التقليدية من الدعوة العباسية . فقد كان التفسير التقليدي ، وهو الغالب ، ان الدعوة العباسية التي انتهت بفوز عسكري لمؤيدي ودعاة بني العباس ، هي ثورة انقلابية نقلت السلطان في الدولة من اسرة عربية قرشية مسلمة الى اسرة اخرى لها نفس المواصفات ، وانها تحقيق لمسعى آل البيت الطويل للوصول الى ارثهم أو حقهم في الخلافة باعتبارهم اقرب الناس نسبا الى الرسول ، الامر الذي كانوا يتنازعونه مع آل علي بن أبي طالب (الشيعة) الذين سبقوا سواهم من القرشيين في المطالبة بهذا الحق .

والى جانب هذا التفسير التقليدي كان هناك ، قبل اشارة (دينيت) ، ما يمكن تسميته بالتفسير (العنصري) أو (القومي) الذي يمثله مستشرقون رواد ، من امثال (فان فلوتن) و (فلهاوزن) وسواهما ، الذين رأوا في الدعوة العباسية وانتصارها ثورة قومية ايرانية توجهت ضد الظلم الاجتماعي والاقتصادي ، والاضطهاد السياسي ، الذي كانت تعاني منه فئة الموالي التي كانت غالبيتها من الفرس ، والتي تمثل الجمهور الاعظم من رعايا الدولة الاسلامية . وقد رأى المستشرق فان فلوتن ، الذي تأثر بالافكار القومية التي كانت تسود اوربا في القرن التاسع عشر ان الازمة التي شهدتها الدولة الاسلامية في نهاية الحكم الاموي ، والتي انتهت بفوز بني العباس ، أزمة صراع على السلطة بين الاقلية العربية الحاكمة في الدولة ، والغالبية غير العربية من الرعايا غير العرب ، وعلل انحياز اهل خراسان الى الدعوة العباسية وتأييدهم لها بأسباب من بينها(٣) :

١ ــ كره الجماهير الفارسية لحكامها العرب .

٢ ــ ميل غالبية الموالي الى آل البيت ومساندتهم للثورات الشيعية .

٣ ــ الاخطاء التي ارتكبها الحكام العرب وجورهم في معاملة رعاياهم من غير العرب ، مما ادى الى انبعاث الروح القومية الايرانية التي غدت المظلة التي يستظل بها المحرومون من ابناء الشعب الايراني والذين شغلتهم فكرة المهدي المنتظر . Messiah

وجاء فلهاوزن بعد ذلك فايد آراء فان فلوتن وانطلق منها في عرض ارائه التي ضمنها كتابه (الدولة العربية وسقوطها) (Das Arabisch Reichund Seinsturz)

وعلى الرغم من أن فالهاوزن كان أول من تنبه الى دور عرب خراسان في الثورة العباسية ، الا انه عزا تحركهم الى دوافع عصبية فحسب ، تتمثل في النزاعاتالقبلية التي تعود جذورها الى ما قبل الاسلام ، وسها عن الظروف الجديدة التي نجمت بعد استقرار القبائل الفاتحة في الامصار المفتوحة وارتباط مصالحها بأوضاع العصر الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يكن الحاح جماعة التفسير العنصري او القومي على دور العناصر الفارسية فحسب ، بل شمل هذا التفسير عناصر قومية اخرى ، كعنصر الترك الذين كانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر والذين لعبوا دورا بارزا في انجاح الثورة العباسية ضد الامويين ، حتى ان بعضهم اعتبر أبا مسلم الخراساني من أصل تركي،وانه استطاع في وقت قصير أن يكسب الى صفه اتراك بلاد ما وراء النهر(٤) .

وجاء بعد هؤلاء الباحثين باحثون جدد ، لعل أولهم واشهرهم هو المستشرق البريطاني المعروف هاملتون جب ، ومن بعده برنارد لويس ، اللذان نبها الى دور فعال للعرب في الثورة العباسية .

وكانت اشارة جب المشهورة في كتابه « الفتوح العربية في آسية الوسطى » والتي يقول فيها ان الروايات التي تظهر حماس الايرانيين لابي مسلم الخراساني صحيحة فقط في الفترة التي تلت نجاحه ، اذ ليس هناك اي دليل في رواياتنا التاريخية الموثوقة على حركة جماهير ايرانية كما يصورها بعض المؤرخين(٥) ، نقول : كانت اشارة جب هذه اول تنبيه يصدر عن باحث جاد الى اهمية دور العرب الفعال في الثورة العباسية . وفي العديد من البحوث والكتب ، اشار المستشرق جب الى اهمية دور العرب اليمانية في نجاح الدعوة ، واكد على عدم عنصرية الثورة ، ونفى

وجود حركة جماهيرية ايرانية يراسها ابو مسلم الخراساني تهدف الى اقامة حكم تكون الكلمة فيه للعنصر الفارسي . وجاء برنارد لويس بعد جب ليؤكد دور العرب القاطنين في خراسان في نجاح ثورة بني العباس(٦). وكانت اشارات هذين المستشرقين على بساطتها وعدم عمقها ، مؤشرا لاتجاه جديد في دراسة هذا الموضوع .

وقد ساعد على نماء هذا الاتجاه والانحراف عن الخط التقليدي أو القومي اللذين اشرنا اليهما ، توفر مصادر مخطوطة لم يتح للباحثين السابقين ان يستخدموها ومن بين هذه المصادر مخطوطة « أخبار العباس وولده(٧) » وهي لمؤلف مجهول يرى الدكتور عبد العزيز الدوري الذي ساهم في نشرها وكتب مقدمة لها ، بانه من مؤرخي اواسط القرن الثالث الهجري ، وانه قد يكون محمد بن صالح بن مهران المعروف بابن النطاح المتوفى عام ٢٥٢هـ/٨٦٨م(٨). ويذكر الدكتور الدوري في مقدمته ان مؤلف الكتاب « اعطى صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها وكشف عن جذور الغلو فيها مما لا يناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم ، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الى الوثيقة السرية منها الى كتاب للجمهور »(٩) . واهمية هذا المؤلف انه انفرد بمعلومات عن بداية الدعوة (حتى سنة ١٠٠ هـ) وبعض احداثها واسرارها مما لا تجده عند سواه من جهة ، ولربما كان استقاه من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة ورؤسائها والدعاة البارزين فيها . وعند الدوري ان ما جاء في الكتاب من اخبار عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم تعتمد على هذه المصادر وعلى اناس متصلين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي ، وبعض افراد الاسرة العباسية نفسها مثل عيسى بن عبد الله « عيسى بن موسى » وابراهيم بن المهدي والرشيد نفسه(١٠). وتكمن أهمية المعلومات الواردة في هذا المصدر الجديد في اننا نتعرف من خلالها على الاساليب التي تبنتها الدعوة لجذب رؤساء العشائر العربية في خراسان والعرب المستقرين في واحات مرو وقراها(١١) .

أما المصدر الثاني الذي جاءت فيه معلومات لم تكن معروفة للباحثين السابقين ، فهو كتاب « تاريخ الخلفاء » لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر ، وقد نشرت مصورة عن هذا المخطوط الوحيد وقدم لها بطرس غريازنيويج ، الاستاذ في معهد الاستشراق في موسكو ، وذلك في موسكو سنة ١٩٦٧ . ويذكر ناشر المصورة في ملخص بالانكليزية ملحق بها ان المادة الموجودة بالكتاب تعتمد في اصولها على مصادر سابقة ثلاثة هي : تجارب الامم لابن مسكويه ، واكتاب المعارف لابن قتيبة ، ومخطوطة تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول التي كان الدكتور الدوري قد عثر عليها عام ١٩٥٧ (ونشرها عام ١٩٧١ كما أشرنا في الهامش ٧) . ويذكر كاتب

الملخص هذا ان التشابه بين ما جاء في « تاريخ الخلفاء » ومخطوطة « اخبار العباس وولده » كبير جدا ولا سيما في احداث الدعوة وظروف وصـول الخلفـاء العباسيين الى السلطة ، حتى أن مؤلف تاريخ الخلفاء يبدو وكأنه نقل نقلا حرفيا عن صاحب كتاب « أخبار العباس وولده(١٢) » .

وقد قمت شخصيا ببعض المقارنات بين الكتابين فوجدت ان هذا الزعـم صحيح وان المرء يميل الى الاعتقاد بنتيجة ذلك ان مؤلف « تاريخ الخلفاء » كان في كثير من المواضع يلخص المعلومات الواردة في كتاب « اخبار العباس وولده » وفـي مواضع اخرى ينقلها نقلا حرفيا .

ونأتي الى المصدر الثالث الذي فات استعماله اصحاب الرأيين الاولين وهـو الجزء الذي يعني بانسـاب واخبار « العباس بن عبد المطلب وولده » من انسـاب الاشراف للبلاذري ، والذي نشره مؤخرا الدكتور عبد العزيز الدوري(١٣) . وفي هـذا الجزء من الانساب ومن خلال الحديث عن شخصيات عباسية ، من امثال محمد بن علي بن عبد الله بن العباس واولاده كابراهيم وعبد الله وبعض الشخصيات التـي شاركت في الثورة العباسية والدعوة لها كقحطبة وابي سلمة والسفياني وسواهم(١٤) يذكر البلاذري اخبارا لا تتوافر عند سواه من أصحاب المصادر المتداولة ، كما ينقل عن رواة ثقاة من امثال المدائني وعمر بن شبه والهيثم بن عدي وسواهم ، فهو بهـذا يكمل ما في مصادرنا من نواقص في الروايات لم تتوافر لهم .

والمصدر الجديد الرابع الذي لم يقع للباحثين الاولين في موضوع الدعـوة العباسية هو كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي الذي نشر في حيدر أباد عام ١٩٧٥ . وابن الاعثم مؤرخ عربي عاش في القرن الثالث الهجري وتوفي في العام ٣١٤ هـ/٩٢٦ م ، وكتابه « الفتوح » لم يكن معروفا للباحثين ولم يفد منه الا باحثون محدثون علـى الرغم من اهمية المادة العلمية المتوافرة فيه . ويعتمد ابن الاعثم في ذكر اخبـاره اسلوب الاسناد الجمعي كاليعقوبي فيذكر في مقدمة كتابه اسماء الرواة الذيـن اخذ عنهم اخباره . وتنبع اهميته من انه عاش في فترة مبكرة وانه كان من المصادر التي اعتمدها من تلاه من المؤرخين . وطبيعي انه بعد ان انتهى من ذكر الاحـداث التي انتهت بسقوط خلافة بني امية لم يعد كتابه كتابا في الفتوح ، بل غدا من كتب التاريخ العام ، واستخدم اسانيد جديدة لاخباره واعتمد رواة مـن امثال المدائنـي والبلاذري والهيثم بن عدي ، مما يجعل القارىء يشعر وكأن هذا الجزء من الكتاب كتاب جديد لا علاقة له بالقسم الاول الذي كان طابع الفتح واخباره هـو الغالـب عليه ، حتى انه يعتبر ظهور المسودة في خراسان وزوال بني أمية بداية مرحلة جديدة

في التاريخ الاسلامي ، انتهى فيها عهد غلبت عليه الفتوح ، وبدأ عهد طبعته السياسة بطابعها ، وابن الاعثم علوي متشيع يعتبر الثورة العباسية من صنع اناس كانوا يعملون لصالح آل البيت وينقم على بني العباس استلابهم لهذه الثورة ، فيظهر السنوات الاولى من حكمهم وكانها فترة مجازر هدفت للثار من الامويين لال البيت عموما . والمدائني غير دقيق في نقل اخبار هذه الفترة فهو انتقائي في سرده للروايات يسقط ما يريد ويحتفظ بما يناسب ميوله . وايا كان فان في كتابه من المعلومات ما يزيد في زاد الباحث ومعلوماته ، ولكن لابد من الحذر في استعمال هذه المعلومات والتدقيق بما يؤخذ عنه من اخبار .

ويوصلنا ذلك الى الحديث عن كتاب تاريخ الموصل للازدي (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م) ، والذي طبع مؤخرا في القاهرة عام ١٩٦٧ والذي يعتبر من البواكير الاولى في التآليف التي نسميها « بالتواريخ المحلية » . ومعلوم ان هذا النوع من التواريخ ظهر متأخرا عن سواه من انواع التأليف التاريخي ، وغدا بعد ذلك من الميادين الشائعة التي طرقها المؤرخون المتأخرون (الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وابن تغري بردى في النجوم الزاهرة وسواها) وميزة هذا النوع من التواريخ انه يولي البلد الذي يتحدث عنه اهتماما خاصا من خلال اهتمامه باحداث التاريخ العام . والازدي في « تاريخ الموصل » قصد أن يضع سجلا يبحث في طبقات المحدثين الذين اشتهروا ، وكانوا من اهل الموصل او زاروها او اقاموا فيها (على نمط ابن عساكر في تاريخ دمشق) وقد فقد الجزء الاول من الكتاب ، وبقي الجزء الثاني الذي يبدأ باحداث العام ١٠١ هـ / ٧٢٠ م . وفي هذا الجزء نجد المؤلف يحرص على ذكر الاحداث التي كان لمدينة الموصل اثر هام فيها .

ورغم ان الكتاب من كتب « التاريخ المحلي » فان مؤلفه حرص على الا يفوته ذكر الاحداث الجسام التي حدثت خارج الموصل ، ولا سيما في منطقة الجزيرة وسواها من اقاليم الدولة الاسلامية . وقد اعتمد الازدي في جمع معلوماته وسردها طريقة المحدثين ، فاعطى لكل رواية سندها . وكان بين رواته ثقاة من امثال : المدائني وابي معشر ، والهيثم بن عدي وسواهم . وعلى الرغم من ان الازدي يظهر في كتابه ميلا للعلويين الا أن صفة العدالة والضبط تظل غالبة على الكتاب حتى انه يقول في مقدمة بحثه انه « لم يعدل عن الصدق » . ومن تفحص المادة الموجودة في الجزء الذي نشر مؤخرا ، والذي يبدأ بالعام ١٠١ هـ كما اسلفنا ، نجد ان المؤلف قدم لنا معلومات هامة عن الفترة المتاخرة من حياة الدولة الاموية التي كانت خلالها دعوة بني العباس ناشطة . وتوضح الاخبار الواردة عند هذا المؤلف ان العنصر

العربي لعب دورا نشيطا في تأييد الثورة العباسية وانه ساهم مساهمة فعالة في القوة العباسية الضاربة التي حققت النصر لهذه الثورة . كما انا نقرأ عنده ما يظهر الدور الذي لعبته الكتل القبلية العربية وشيوخها في دعم الثورة وايصالها الى حسم الصراع مع الامويين لصالحها ، ويشير الى دور العرب اليمانية ومن كان منهم بين طبقة النقباء في سلم الدعاة العباسيين ، ويؤكد اعتماد الثورة على العنصر اليماني ومعرفة حقه ، هذا فضلا عن الدور الذي كان للموصل في احداث هذه الفترة ، وذكر اسماء اشرافها الذين قتلوا في تلك الاحداث(١٥) . وقد نقل عن الازدي بعض المؤرخين المتأخرين ولا سيما ابن الاثير ، دون ذكر اسمه ، وقد كشفنا ذلك بعد ان قيض لمخطوطة تاريخ الموصل ان ترى النور .

هذا وهناك مصادر اخرى اقل اهمية من هذه التي ذكرنا ولكنها مازالت تنتظر يد المحقق الامين ، ولعل اهمها مخطوطة كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت ٢٢٨ هـ/٨٤٣ م) والتي عاش صاحبها زمن المأمون والمعتصم ، ولكنها اقل اهمية من سابقاتها على ما يبدو ، لان صاحبها كان يهتم بجمع الاحاديث التي يزعم ان رسول الله كان قد تنبأ بها بفتن ستحدث(١٦) .

ان توافر هذه المخطوطات للباحثين ، وحتى قبل ان تحقق وتنشر ، كان نقطة البدء في الانعطاف الذي رأينا تباشيره عند جب ولويس والدوري ، وسواهم من الباحثين المحدثين ، الذين لبوا دعوة دانييل دينيت الى اعادة النظر في موقف الباحثين الاول ، من امثال فلهاوزن وفان فلوتن وسواهما ، وضرورة النظر بعين الاعتبار الى الدور الذي لعبه المقاتلة الخراسانية العرب وقبائل الازد وربيعة في ايصال الثورة العباسية الى النصر .

وجاء بعد ذلك باحثون عرب من بينهم محمد عبد الحي شعبان الذي ذكر في اطروحة دكتوراه قدمها لجامعة هارفرد الامريكية بعنوان : « الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية » ان هدف الثورة العباسية كان « دمج كل المسلمين العرب وغير العرب في الامبراطورية في مجتمع اسلامي واحد لكل فرد من ابنائه حقوق متساوية »(١٧) . وعلى الرغم مما في هذا الافتراض من مقولة قد تكون مقبولة في الظاهر الا أن ما حدث بعد وصول العباسيين الى السلطة ، يثبت ان ذلك لم يتحقق ابدا ، كما سنرى فيما بعد . وجاء بعد شعبان الدكتور فاروق عمر ليعلن « اننا يجب أن نبحث عن أسباب للثورة العباسية في ظواهر اخرى غير ظواهر الصراع بين الفرس والعرب، أو التمييز الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسته السلطة الاموية تجاه الموالي، فقد اهمل المؤرخون المحدثون سياسة الامويين الادارية والمالية في خراسان ، وردود

الفعل لدى اهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة »(١٨) . وفي موضع آخر يؤكد الدكتور عمر بأن « ظروف خراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين والسلطة المركزية الاموية في دمشق ، اثرت في ايجاد الجو المناسب للثورة دون شك »(١٩) ، وينبه بعد ذلك الى انه يجب عدم اهمال دور المقاتلة من العرب الذين كانوا يتذمرون بسبب سياسة التجمير (التجميد) ، ولان الوالي الاموي كان يسلبهم فيئهم وغذاءهم في بعض الاحيان ، هذا فضلا عن النزاع المستمر بين شيوخ القبائل العربية في خراسان بسبب طموحهم للحصول على ولاية خراسان وما ادى اليه ذلك من اشمئزاز هذه القبائل ، وشعورها بأن لها في الثورة العباسية املا بحياة اكثر استقرارا ورفاهية(٢٠) كما انه يركز على دور العرب الفعال في نجاح الثورة العباسية ، هذا الامر الذي اهمله الباحثون السابقون .

بعد هذا العرض السريع للاراء المختلفة حول هوية الثورة العباسية والعوامل التي ساهمت في صنعها وانجاحها ، والدور الذي لعبه ظهور مصادر جديدة في تغيير مواقف الباحثين ، نقول ان هذا النقاش بين الباحثين والالحاح على موضوع هوية هذه الثورة ومدى عروبتها أو عجمتها قد انتهى لصالح الفريق القائل باصالة هذه الثورة من حيث كونها عباسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر راي العديد منهم على انها قامت على أكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . هذا بالاضافة الى عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس ابن ابي طالب عم الرسول ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، وأهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب اقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتأتلف قبائلهم من ورائهم ، حتى أن بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر ان الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها بالبعض الآخر لتنكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عمله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعة، وقد نجح في ذلك(٢١) . اما كتلة الموالي فلم تكن ذات هوية عرقية معينة، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفا مثل الجاحظ يميز بين (الموالي و (العجم) من جهة ، وبين (العرب) و (العجم) من جهة اخرى . فولاء (الموالي) كان خالصا للدولة ، لا لجنس معين وهذا يعني كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « أن التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجا من عربي الى أممي ، أي أن الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للارستقراطية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة : الاسلام »(٢٢).

ومعلوم ان الثورة العباسية التي اسقطت حكم بني أمية ونقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيبا من جميع افراد الجماعة الاسلامية أو مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بامرها وينتظر على يديها الخير العميم ، كان آخرون يرون في قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكا عضوضا كسرويا(٢٣) .

واذا اضفنا الى ذلك ان الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، اي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع ابو بكر الصديق ان يقمعها بحزمه واخلاصه وايمانه الذي لايتزعزع بوجوب استمرار الدولة المسلمة الموحدة الاولى التي اقام الرسول دعائمها في المدينة ، ان هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت ان تعلو خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا أن نعتبر أن حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى ، واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت أن تنشر السيادة العربية وان توسع رقعة الارض العربية ، لاسيما بعد ان أكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف اصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقف هذا المد العربي ولتلغي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة اممية تزداد فيها اهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء (أمهات ولد) .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بانه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : دولة بني العباس اعجمية خراسانية ودولة بني مروان أموية عربية ، ويثني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر انه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها »(٢٤) ، ولكننا نرى أن تبلور الوعي العربي وتعاظم اهتمام اصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان أولها تضاؤل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء افراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربعها مكان الصدارة في السياسة والمجتمع. ووضح كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قامت بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعوبية والزندقة .

ورغم انه لايدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا انه لابد لنا أن نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعي ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . ويتضح هذا الذي نزعم بصورة اكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعوبية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة اخرى . فالشعوبية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية أخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا السهم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي . وما لبثت أن بدأت حركات مريبة ، كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني ، وسواها ، تطل براسها لتعمل في الجسد العربي نخرا وتخريبا . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها في مهدها ، الا انها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثارا اقلها انفصال اقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيرا ما كانت تحجبها عنه . وقد وضح هذا الصراع اكثر ما وضح في العراق ، قلب الدولة العباسية والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحا لصراع مماثل بين العروبة والعجمة ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في أن الثورة العباسية بما عبأت من قوى عرقية وبما استقطبت من نقمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على ان هذا لا يعني أن المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لان انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من أسر أغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من أحقاد ، كان أقوى من أن تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز أن نضيف ان السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الاخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي أقوى واعمق اثرا من مجرد ظاهرة تبدل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس اتيح له ان يتفجر في لحظة ضعف فطغى ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهه .

وهنا لابد لنا ان نشير الى أن هذا الصراع المرير بين العرب وغير العرب لم يكن شرا كله ، اذ انه ساعد على بلورة فكرة « أمة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطا طويلا تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقة محدودة الى صعيد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتاق .

وكان أول مظاهر هذا الوعي التاكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية ، فقد استطاعت العربية أن تصمد وان تحفظ وجها عربيا للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، الا نسرف في شرح ابعاد واثار هذه الظاهرة ، ولكن لابد من التنويه بان كل من حمل راية معارضة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهما في هذه المرحلة من بحثنا ان نتساءل عن الاسباب التي تكمن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس ، التي بدأت حياتها وهي تلوح عاليا بهويتها العربية معتزة بها ، وبالدعم العربي الذي أوصلها الى سحق بني امية والتربع على كرسي السلطان ، بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية السوداء ، وما اخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد امد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟ وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين انصار الراي القديم الذي يقول بعجمة الثورة وانصار الراي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع اصحاب الراي القائل بعجمة الثورة ان يستغلوا الاخبار التي نجدها في مصادرنا حول تذمر العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الاول كدليل على صحة نظريتهم . وفساد راي القائلين بان العرب عموما ، وعرب المشرق خصوصا ، هم الذين اوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لا بد لنا من ان نتذكر الامور التالية :

اولا : ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي ان نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب اخبار الدولة العباسية(٢٥) ، باسماء النقباء ونظراء

النقباء والدعاة حتى يتبين لنا ان القائمين على الثورة كانوا عربا وغير عرب وان الذي يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني امية وايصال بني العباس الى الحكم ، وان الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وانه كان لهم في ذلك مصلحة مشتركة.

ثانيا : كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو ان هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الاول من امثال سالم بن بجير (سالم الاعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي:

« ولما اجمع محمد بن علي على توجيه ابي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا أن نستبد بأمر دونك ولا نسبقك ونحن نأتم بك ، وقد احببت أن أستأذنك في شيء قد كنا رأيناه فخالفنا فيه بكَيْر اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما احب أن تخالفوا بكيرا فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في أمرنا هذا فرأيناك قد حللت بين اهل الشام ، ورأينا لاهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فرأينا ان نبث دعوتك فيهم ، وندعو منهم من طمعنا في اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيه . قال محمد : أصاب بكير واخطأتم أبى الله ان يأتي بالشمس من المغرب ، وأحب ان يأتي بها من المشرق ، وان أهل الشام أعوان الظالمين وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاعين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني أمية ، واغرى أكثر اهل العراق بمشايعة بني أبي طالب ، وقد خصنا الله بأهل خراسان ، فهم أنصارنا وأعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك ان تتبعهم ريح الحياة فتعز ذليلهم ، وتقوى ضعيفهم ، وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق واهله ، يقول الله عز وجل : (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها) فكأنكم بالاودية قد سالت برجال خراسان أشد في طاعتنا من زبَر الحديد ، أسماؤهم الكنى ، وانسابهم القرى ، يقدمهم النصر ويحوطهم العز ، من غير اهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير اهلها مجيب »(٢٦) .

ويتضح من هذا الحوار ان سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد بن علي وموضع ثقته استغرب موقف بكير بن ماهان من أهل دمشق ومحاولته ابعادهم من الدعوة ، على الرغم من ان بكيرا كان من موالي بني مسلية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من أهل الديوان قبل ان يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت(٢٧) . ومع ان سالما لا يطلب من محمد بن علي ان يشق بجميع اهل الشام وان يطلعهم على أسرار الدعوة ، وان يقتصر في ذلك على الثقاة منهم الذين يطمع في اجابتهم ، ولكن محمدا يرفض وينعت أهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد ان الله قد خصهم (اي بني العباس) باهل خراسان ، وان رحمة الله ستعز ذليلهم وتقوي ضعيفهم ، وكان في ذلك اشارة الى فئة خاصة من أهل خراسان هي

فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسية . كما انه لا يمكن ان يفهم من وصف محمد بن علي للرجال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بأن « اسماءهم الكنى » بانهم كانوا من العرب فقط ، لان زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكنون الموالي من رجالاتهم ، وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى « بأبي هاشم » وخالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بابي اسحق ، وابو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . اما قوله بان « انسابهم القرى » فدليل واضح على تخليهم عن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقرية التي يقطنونها . وعندنا ان هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركة السياسية الجديدة كان نتيجة قهر اجتماعي واقتصادي كبيرين ، عاشه في تلك المنطقة عرب وغير عرب ، جعل الشعور العصبي يتضاءل أمام الآمال المعقودة على نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي المنشود ، كما انه دليل على انصهار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من اخلاط الامم اللذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي ادى الى انتساب الناس الى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري في عروقهم .

ثالثا : ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بانه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني امية ان ينكر اثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط أولئك ، كما انه لابد أن نلاحظ ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني امية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم من العرب أيضا . واذا ما استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربية القديمة او تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمر نفوذها في ظل بني امية ، لوجدنا ان النقمة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك ، والتي ضمت العديد من رعايا الدولة ، عربا وغير عرب ، كانت من أهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضا في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجددا ، لا سيما وان عوامل جديدة أخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت الشكوى تتعاظم فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجددا للغرض نفسه(٢٨). فقد تبين لهؤلاء ان ما كان يدعيه العباسيون من انهم ثاروا « لاظهار العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء واخذ الحق من الاقوياء » ما هو الا ضلال لا يماثله الا ما كان يفعله أبو مسلم الخراساني حين كان يحرر الاسرى من الجيش الاموي ويعاملهم معاملة حسنة ويعيدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي ابي مسلم وجماعته (٢٩) .

على ان الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دونمامبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار امرها ان يستخرج العوامل التي حرفت الدولة عن مسار الثورة التي اوصلتها للحكم ، واوجدت الوحشة بينهـا وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضـداً قويا أمدها بالدماء والمهج التي حققت النصر على خصومها الامويين . فلا بد اولا من أن نذكر ان القضيـة الاقتصاديـة والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الاوائل للحركة العباسية . وليس ادل على هذا من قول محمد بن علي في وصف اهل خراسان الذين اعتمدهم عصب ثورته : « وما يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون »(٣٠) . فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحال والذين انضمـوا للثـورة بأمـل الخلاص لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على اقدامها ، حتى وضح لهم انها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا انهـم سيتظللون أفيـاءه اذا ما كتب النصر لبني العباس . ومعروف ان التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد ان ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غـدا تركيبا لا تجانس فيه تتقسمه المطامع الفئوية والعرقية لتعمل يد التخريب في جسد الدولة ووحدتها السياسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهرا واضحا من مظاهر الحكم زمن بني امية ، ولا سيما خلال فترات القوة ايام معاوية وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد ادت هذه الظاهرة الجديدة الى توزع اهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة او حركة اعتقدوا ان فيها تنفيسا عن كربهم او املا بنجاتهم ، حتى وصل الامر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي المجوسي ، ومحاولة احياء ما كان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفا دينيا او قوميا فحسب كما يحلو للبعض ان يفسره ، ولكننا نرى فيه أيضا تعبيرا عن نقمة اجتماعيـة واقتصادية كانت تعتلج بقوة وشراهة في نفوس هؤلاء المرتدين ، لاسيما وان السلطة العباسية لم تكن وفية لمبادىء المساواة والعدالة التي اطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعد بعدالة لم تتحقق على يد الامويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيـه، لفحص واع لبعض اخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ ايامها الاولى، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن ابي جعفر المنصور والتي تقدم مثلا واضحا على ما أصاب المحرومين من خيبة امل في الحكم الجديد جعلهم يحملون السلاح في وجهه(٣١).

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بانها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل احداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب اعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين

يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البدء في هذا النوع من التحركات مقتل ابي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سنباذ ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل ابي مسلم سنة ١٣٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سنباذ الذي تزعم المصادر انه كان مجوسيا ومن اتباع ابي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري ، تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لا نجد في مصادرنا اجابات عليها ولا مجال لبحثها هنا .

وتتوضح هذه الصورة بابعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة ، والعرقية تارة اخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور ، كحركة الراوندية الذين خرجوا زمن ابي جعفر المنصور ، وكانوا من أهل خراسان ، وعلى رأي ابي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل ابي مسلم جهروا بقولهم بتناسخ الارواح ، وزعموا ان روح ادم حلت في عثمان بن نهيك .

على ان هذا الموقف من جانب ابي جعفر سرعان ما تبدل . ولا سيما حين ادرك ان ما يقولون بالسنتهم ما هو الا تزييف لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصدر عزة العرب ومرتكز سيادتهم فحاولوا ان يأخذوا بظاهره لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة مالبثت ان انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على ان حركة الراوندية تظل رمزا بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

١ ـ هويتها الخراسانية .

٢ ـ حقدها الدفين على العرب .

٣ ـ حربها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لابد لنا ان نلاحظ ، ان خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعة علي بن ابي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس لهم . وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي من ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصا للاسلام .

واذا استعرضنا اهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها ، فيما كان يعرف باسم بلاد ماوراء النهر ، لوجدنا انه لم يكن يمر يوم دونما

انتفاضة في اقليم من الاقاليم او مدينة من المدن ، أو دونما ثورة يحركها زعيم محلي، وحتى ان القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة .

وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات ، الامر الذي جعلها تنزف نزيفا دائما ، وما تكاد تسد خرقا حتى تواجه بخرق أدهى وامر . اذا اضفنا الى كل ذلك ان الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد أسلموا بعد ، أو أن الكثير ممن أسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفا او مشوها لاختلاطه بالعقائد المحلية القديمة ، لوجدنا أن الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام ، وقد زاد هذا الوضع حدة السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك الاصقاع ، كما ان أطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقاتهم وسلطانهم لجني أكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لاينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان أهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي اعلنتها ثورة بني العباس على اسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية ، وفي الاطار العام لسياسة الدولة .

فقد سار العباسيون بعد ان غدوا أصحاب السلطان شوطا أبعد في التنكرلشعارات ثورتهم اذ انهم وجدوا أن اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية أبي هاشم يجعلهم يظهرون وكأن المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي ، وان حقهم في ولاية أمور المسلمين مرتبط بقرابتهم لابناء علي فقط ، وهذا ما لايقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم احياء يرزقون ، أحق بارثهم عن أبيهم .

كما ان ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات الغلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود الفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة تقوم على أساس من حق عمومتهم لرسول الله من جهة وثورتهم على « أهل الجور » اي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ؛ من جهة اخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو ان العباس عم الرسول (ص) وانه وريثه بعد ان انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وئيدة استمرت منذ عهد أبي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور .

واذا تركنا هذا المظهر الاول من مظاهر مخالفة العباسيين للاهـداف المعلنـة لثورتهم من حيث علاقتهم بآل البيت من العلويين ، وانتقلنا الى أمر آخر مـن الامـور المعلنة في خطة الثورة العباسية وأهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والـذي يتجلى في قول أبي مسلم الخراساني :

« أمرني الامام ان انزل في أهل اليمن ، واتألف ربيعة ، ولا أدع تصيبي من صالحي مضر ، وأحذر أكثرهم من اتباع بني امية ، وأجمع الي العجم »(٣٢) . وقولـه « قـد أمرنا الامام باختصاص اليمن » (٣٣) . هذا فضلا عن النقاش الطويل الـذي اسلفنـا الاشارة اليه حول هوية الثورة العباسية ، والذي جنح فيه الباحثون المحدثـون الـى القول بأن جهد الدعاة العباسيين في خراسان كان موجها بصورة رئيسية للعـرب : مقاتلتهم ومستقريهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب وفي كل مدينة فيها حامية عربية ، لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطـة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولا كسبهم الى الدعوة العباسية » (٣٤) و « ان سند أبي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة مـن أجـل تغيير جـذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » كما يقول عبد الحي شعبان(٣٥) . وكـان جهد هؤلاء الباحثين منصبا على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فـان فلوتـن وسواه ، الذي يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية ايرانية ضد السيادة العربية في الدولة، ومحاولة منهم لابراز دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعـي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظـور القومـي العربـي للعناصر التي قامت بالثورة ، وأناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هـذا الدور العباسي الاول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديـد مـن الثورات ذات الهوية العربية ، بقيادتها ورجالاتها ومضمونها . وكأن الذين قاموا بهـذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانـوا يـرون في حكم بنـي العباس حكما لم يف بوعوده للعنصر العربي الـذي كان عمـاد ثورتهم ، ففـي الفتـرة الاولى من حكم هذه الاسرة ، كان طبيعيا ان تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الامر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة ليغدوا شعـورا عامـا ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت ان الحكم العباسي يحابي اليمانيـة علـى حساب القيسية ، لتحل محلها ثورات يمانيـة على الرغم مما بين اليمانيـة والثـورة العباسية من حلف اكدته جميع مصادرنا . ورغم انه لايدخل في نطاق هذه الدراسـة

التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا أقل من أن نذكر أن اهمال شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي الى الحد الذي دعا قيسا ويمنا الى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتتعاظم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن شبث العقيلي عام ١٩٨ هـ ، والتي بررها بقوله انه لايكره بني العباس وانه لا يقاتلهم الا لانهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الاعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة أبي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دورا محرضا ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والاردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ والتي انضم اليه فيها ما يزيد على المئة ألف رجل واستمرت حتى خلافة المعتصم .

ان استقراء أسباب وأحداث هذه الثورات يوضح أنها بدأت منذ الايام الاولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وان أسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما اعلنته من مبادىء ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقرأه في كتاب العيون والحدائق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحدائق : « وفيها (أي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين الفا . . . وخرج جماعة على أبي مسلم فقتلهم بعد حروب كثيرة » (٣٦) . وقد أهمل بعض الباحثين المحدثين أمر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الاول وظنوا انها لم تقم الا في بلاد الشام ، وانها كانت تعبيرا عن نقمة أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الاموية ، ولابتعاد مركز الخلافة عن دمشق . ولكن تتبع الاحداث واستقصاء ما في مصادرنا من أخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لاتقتصر على الشام فحسب بل تقوم في اغلب اصقاع الدولة الاسلامية . فهذه ثورة الامير احمد بن محمد العمري ، المعروف بالاحمر العين ، ببلاد اليمن (٣٧) ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربية التي شغلت الخلافة العباسية ردحا طويلا من الزمن خلال حكم الواثق ، وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة ، وكانت كلها تعبيرا عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن شبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الامين يقولها

مجلجة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعـد مقتل الاميـن ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها الـى الفرس : « فصاح (أي نصر) بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليه (اي علـى المأمون) ، هو لم يقو على اربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) يقوي علـى حلبـة العـرب » (٣٨) .

ولم تكن مصر أقل تحسسا لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسـي الاول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان أكبرها وأكثرها خطرا ثـورة عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، ممـا اضطـر هـذا الخليفة لان يعهـد بقمعها لامهر قوادة عبد الله بن طاهر ، وكافأه على نجاحه في القضـاء عليهـا بتوليتـه مصر (٣٩) . وهكذا فان العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكـر المصادر الاولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع الى المحل الثاني في الدولة ، الامر الذي دعاه الى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولا رد الامور الى نصابهـا ، واحتلال المكانة التي لم تعط له منذ اليوم الاول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول الامر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائيا عن المسرح السياسـي وتـدال دولتـه ما قـام للعباسيين أمر . وسيحل محله كما هو معروف، ومنذ خلافة المعتصم، العنصر التركي، ثم سواه من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي أن هذا الذي آل اليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بـوادره وما يدل عليه منذ الايام الاولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني أمية . فرغـم انضمام بعض عرب المشرق اليها واندفاعهم في نصرتها ، فقد شعروا ، ومنذ ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وقيام أبي سلمة الخلال بالامر لبني عباس في مرو ، ان دورهـم لن يكون الا ضئيلا وثانويا . « فاضطرب أمر العرب بخراسان ، وتعصبـوا وتحلذروا واقتتلوا وهم متحيرون » ، كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » وهكذا ، فالريبة قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة ، وجاءت تصرفـات وافعال من وسدت اليهم الامور من آل العباس ، لتؤكد هذا الشك ، فكانت الثـورات العربية للاسباب التي أوضحنا ، وعلى النحو الذي أسلفنا ، حتى بلغ الامر ببعضهـم الى اعلان الاستقلال بما تحت ايديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء ، كمـا كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الاشارة اليها(٤٠) .

واذا ما انتقلنا الى الميدان العقائدي ، فقد اعلنت الثورة العباسية في أكثر مـن مناسبة وعلى لسـان اكثر من زعيم من زعمائها ، منذ الفترة السرية وحتى آلت اليهـا

السلطة خالصة لا ينازعها فيها من منازع ، ان الثورة انما قامت لتقاتل « قوما حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه ، وتولوا عن أمره»(٤١) ، كما انها عازمة اصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبيه » . وندد زعماؤها « باهل الجور » (اي الامويين)الذين فشلوا فيتطبيق مبادىء العدالة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم(٤٢) .

ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلا ، وجاءت الاحداث في هذا الدور لتثبت ان الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، لم يكن الامر المطبق دائما ، ولاسيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذينستطيع ان نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية ، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل ، وثمرة طيبة حينا ، وخبيثة حينا آخر ، من ثمار التلاقح الفكري بين الامم المختلفة التي عاشت على ارض الدولة الاسلامية وحملت معها ارثها الفكري وما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها ، كما حملت احقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

ولست اريد وانا اضع خاتمة لهذا البحث ان ادخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من ادوار ، واثر هذا كله في توجيه احداث هذه الفترة ، وجهة غدت فيها حركة العيارين والشطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي ، فكانت الاغارة على الاسواق ونهب أموال الاغنياء ، من السادة والتجار ، تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطيللفقراءوالمحرومين،ولهذاموضعآخر،ارجوانيتاحالىتناولهفي بحث قادم ، ولكني اود ان اذكر بأن طبيعة الظرف الذي ادى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها ، ادت كلها الى ان ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون ، المسلمون وغير المسلمين ، العرب وغير العرب . وقد ادى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم ، ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رتعت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بين

ما رفعته الثورة من شعارات ، وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الـى البيـت العباسـي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة ، وتقسـمهم بـين مادح مستفيض في المدح ، وقادح مغرق في القدح ، خير دليل على عدم وحدة المو قـف وتباين الآراء وفق الاهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لا يكتفوا بالظاهر ، والا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب ، وأن يستشفوا ما وراء هذه الاحـداث مـن دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغيه في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يلتـزم المنهجية العلمية ، ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .



الحواشـــي :

(1) انظر من بين هذه الدراسات المروحة : Demett, D.C., Marwan Ibn Muhammad ph. d., thesis, Harvard university, 1929.

Sha ban, M.A., The social and political back-ground of the Abbassid revolution, ph. d. thesis, Harvard, 1960.

Omar, F., The Abbasid Califate, ph. d. thesis, London university, 1967.

2 — See, Demett. op. cit., p. 276.

3 — Van Vloten, Recherche sur la domination Arabe, ed. Amsterdam, 1894, pp. 35FF.

(٤) انظر ، فامبري ، تاريخ بخارى ، ص ١٢٠ فما بعد .

5 — Gibb, H.A.R., The Arab conquests in central Asia, London, 1925p.94.

6 — E. I. 2. Art, Abbassids.

(٧) حقق هذه المخطوطة ونشرها الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي بعنوان « اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده » دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧١ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٥ — ١٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١٠) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١١) عمر (فاروق) بحوث في التاريخ العباسي ، ط. بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٤ .

(١٢) انظر ، مصورة ، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، نشر موسكو ١٩٦٧ ، الملخص باللغة الانكليزية ص ٥٣.

(١٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، القسم الثالث ، العباس بن عبد المطلب وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، بيروت ١٩٧٨ .

(١٤) انظر المصدر السابق ، فهرست المحتويات ، ص ٣٨٠ وما بعدها .

(١٥) انظر ، الازدي ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة١٩٦٧ ، الصفحات المتعلقة باحداث الأعوام ١٣١ — ١٣٣ هـ .

(١٦) حول هذه المخطوطة ، انظر ، فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٩ — ٢١ .

(١٧) نقلا عن المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

(١٩) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٠، ص ٩٨ .

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٢٢) انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسيــة ص ٢٨١ .

(٢٣) انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب« النبذة » الذي يعتبر بان الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها واسندت القضايا والاحكام الى خيلرها » وقارنه برأي ابن الطقطقى صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وغدر » او ابن عذاري وابن حزم الذين ينعيان سقوط دولة بني امية العربية ودواوينها وغلبة عجم خراسان . انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٨ـ٢٧٩ .

(٢٤) انظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين ج٣ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج٧ ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

(٢٥) اخبار العباس وولده ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٢٧) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٢٨) من أجل تفاصيل اوفى حول هذا الموضوع ،انظر كتابنا ، خلافة بني امية ، ط . دمشق ١٩٧٢، ص ٣٧٣ ـ ٣٨٦ .

(٢٩) اخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢ .

(٣٠) اخبار العباس وولده ، ص ٢٠٧ .

(٣١) من أجل اخبار هذه الثورة انظر ، الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .

(٣٢) اخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥ .

(٣٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣٤) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨.

(٣٥) انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٣٦) العيون والحدائق ، ج٣ ، ط . المثنى ، بغداد، ص ٢١١ .

(٣٧) انظر النجوم الزاهرة ، ج٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظرايضا الطبري والبلاذري .

(٣٨) الطبري ، ج٨ ، ص ٥٩٩ .

(٣٩) انظر اخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج٨ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .

(٤٠) انظر ، ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج٨ ، ط . حيدر اباد ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٢ — ٣١٣ .

(٤١) فتوح ابن اعثم الكوفي ، ج٨ ، ص ١٧١ .

(٤٢) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٧ .

